مدخل : تناولت فيه ضبط مصطلحات البحث.

المطلب الأول: الأخذ بالأسباب في القرآن الكريم وعلاقته بالتوكل، ويحوي فرعين اثنين؛ أما أحدهما فتناول الأخذ بالأسباب في القرآن الكريم، وأما الآخر فجعلته للعلاقة بين التوكل واتخاذ الأسباب.

المطلب الثاني: نماذج من القصص القرآني في سنة الأخذ بالأسباب وكيفية استفادة الأمة منها في نهضتها؛ ويحوي بدوره فرعين اثنين، تناولت في الأول أثر تحصيل الأسباب المادية والمعنوية للقوة والتمكين الواردة في قصة "ذي القرنين" في استنهاض الأمة، وتعرضت في الثاني للإدارة السليمة والتخطيط المحكم للنبي يوسف عليه السلام وأثره في الخروج من الأزمات الاقتصادية.

وذيلت البحث بخاتمة لأهم النتائج.

مدخل: التعريف بمصطلحات موضوع الدراسة:

إن تحرير المفاهيم وضبط المصطلحات مقدمة لا بد منها في أي بحث حتى لا نخبط خبط عشواء في ليلة ظلماء، والمصطلحات التي ينبغي توضيحها هي:

أولا: مفهوم السنة الإلهية:

أ: التعريف اللغوي للسنة:

قال ابن فارس:" السين والنون أصل واحد مطرد، وهو جريان الشيء واطراده في سهولة، والأصل قولهم سننت الماء على وجهي أسنه سنّا، إذا أرسلته إرسالا، ثم اشتُقّ منه رجل مسنون الوجه، كأن اللحم قد سن على وجهه،ومما اشتق منه السُّنة، وهي السيرة، وسنة رسول الله ﷺ: سيرته"[(1)]

وورد في لسان العرب:" وسُنَّةُ اللَّهِ: أَحكامه وأَمره وَنَهْيُهُ... وسَنَّها اللَّهُ لِلنَّاسِ: بَيَّنها. وسَنَّ اللَّهُ سُنَّة أَي بَيَّن طَرِيقًا قَوِيمًا. قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ فِي ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلُۚ﴾[الأحزاب، 38]

1- مقاييس اللغة، أحمد بن فارس بن زكرياء أبو الحسين، ت : عبد السلام محمد هارون، دار الفكر للطباعة والنشر ، (د.ط)، 1399هـ-1979م. مادة: (سن)، ج:3، ص:60.

نَصَبَ سُنَّةَ اللَّهِ عَلَى إِرادة الْفِعْلِ أَي سَنَّ اللَّهُ ذَلِكَ فِي الَّذِينَ نَافَقُوا الأَنبياءَ وأَرْجَفُوا بِهِمْ أَن يُقْتَلُوا أَين ثُقِفُوا أَي وُجِدُوا؛ والسُّنَّة: السِّيرَةُ، حَسَنَةً كَانَتْ أَو قَبِيحَةً "(1)

وحاصل البيان أن محور مادة السنة في اللغة يدور حول معاني جريان الشيء واطراده، على نفس السيرة حسنة كانت أو قبيحة، ووفق نفس الطريق.

ب: التعريف الاصطلاحي للسنة الإلهية:

اعتنى المتأخرون بالسنن الإلهية فهما وضبطا واستقراء وربطا بالواقع لإعادة الأمل لهذه الأمة في استرداد القيادة الإنسانية من جديد، وهذا بخلاف القدامى الذين وقفوا على مفهومها معاصرة وممارسة فلم يعتنوا كثيرا بتعريفها.

ومن أحسن التعريفات وأوضحها ما ذكره عبد الكريم زيدان قائلا:" هي الطريقة المتبعة في معاملة الله تعالى للبشر بناء على سلوكهم وأفعالهم وموقفهم من شرع الله وأنبيائه وما يترتب على ذلك من نتائج في الدنيا والآخرة "(2).

ثم سماها بعد ذلك بالقانون العام قائلا:" فهذا يعني أن معنى السنة هو معنى (القانون العام) من حيث خضوع أفعال البشر وسلوكهم إلى أحكام هذه (السنة) "(3).

ثانيا: مفهوم الاستنهاض:

أ: التعريف اللغوي للاستنهاض:

تدور مادة (ن – هـ – ض) في اللغة حول معانٍ عدة تدل على الحركة والانتقال من حال إلى أخرى وضحها أصحاب المعاجم كما يلي:

جاء في لسان العرب: " النُّهوضُ: البَراحُ مِنَ الْمَوْضِعِ والقيامُ عَنْهُ، نَهَضَ يَنْهَضُ نَهْضاً ونُهوضاً وانْتَهَضَ أَي قامَ... وأَنْهَضَه: حَرَّكه للنُّهوض. واسْتَنْهَضْته لأَمر كَذَا إِذا أَمرته بالنُّهوض لَهُ... والنَّهْضةُ: الطَّاقةُ والقوَّةُ. وأَنهضه

1- لسان العرب، محمد بن مكرم بن علي جمال الدين ابن منظور الأنصاري، بيروت، دار صادر، ط. 1، د.ت، مادة: (سن)، ج:13، ص:225.

2- السنن الإلهية في الأمم والجماعات والأفراد في الشريعة الإسلامية، عبد الكريم زيدان- بيروت، مؤسسة الرسالة، ط.1، 1413هـ- 1993م، ص:13.

3- المرجع نفسه، ص: 13.

بِالشَّيْءِ: قوَّاه عَلَى النُّهوضِ بِهِ"(1)

وورد في معجم اللغة العربية المعاصرة:" استنهضَ يستنهض، استِنهاضًا، فهو مُستنهِض، والمفعول مُستنهَض؛ استنهض نائمًا: أنهضه، أيقظه ونبَّهَه؛ واستنهض هِمَمَ العمَّال: حثَّهم وحفزَهم على سرعة القيام بشيء؛ أو أمرهم بالاستعداد لأمرٍ ما "(2).

مما سبق فمن معاني الاستنهاض اللغوية: الإيقاظ والتنبيه بعد غفلة، والحث والتحفيز على القيام بشيء ذي بال والاستعداد له، وتَحْرِيكُ الهمة، وَبَعْثُ النَّشَاطِ فِيها.

ب: التعريف الاصطلاحي للاستنهاض:

باستثمار المعاني اللغوية السابقة يمكن القول أن استنهاض الأمة هو إيقاظ الأمة من غفلتها، ومساعدتها على النهوض من جديد بدفع جميع أفرادها للأخذ بأسباب القوة، وتحفيزهم على تحصيل عوامل الارتقاء وسُنن القيام وفق منهج القرآن الكريم.

ثالثا: مفهوم القصة القرآنية:

أ: التعريف اللغوي للقصة:

ذكر صاحب مختار الصحاح أن:" (قَصَّ) أَثَرَهُ تَتَبَّعَهُ مِنْ بَابِ رَدَّ وَ (قَصَصًا) أَيْضًا وَمِنْهُ: (فَارْتَدَّا عَلَى آثَارِهِمَا قَصَصًا) [الحج، 15]، وَكَذَا (اقْتَصَّ) أَثَرَهُ وَ (تَقَصَّصَ) أَثَرَهُ. ... وَ (قَصَّ) عَلَيْهِ الْخَبَرَ (قَصَصًا) وَالِاسْمُ أَيْضًا (الْقَصَصُ) بِالْفَتْحِ وُضِعَ مَوْضِعَ الْمَصْدَرِ حَتَّى صَارَ أَغْلَبَ عَلَيْهِ. وَ (الْقِصَصُ) بِالْكَسْرِ جَمْعُ (الْقِصَّةِ) الَّتِي تُكْتَبُ "(3).

فالقَصُّ في اللغة يأتي بمعنى التتبع؛ والقَصص بالفتح الأخبار، وبالكسر جمع القصة المكتوبة.

ب: التعريف الاصطلاحي للقصة القرآنية:

باستثمار هذه المعاني اللغوية يمكن القول أن المقصود بالقصة القرآنية ما رواه القرآن الكريم لنا من أخبار وأنباء الأمم السابقة مع أنبيائهم لأهداف دقيقة وبأساليب معجزة.

1- لسان العرب، ابن منظور، مادة: نهض، ج:7، ص: 245.

2-معجم اللغة العربية المعاصرة، أحمد مختار عمر، عالم الكتب، ط.1، 1429هـ – 2008م، مادة: نهض، ج:3، ص:2294.

3- مختار الصحاح، محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي، بيروت، مكتبة لبنان، د.ط، مادة: قصص، 1986م، ص:558.

المطلب الأول: الأخذ بالأسباب في القرآن الكريم وعلاقته بالتوكل:

التوكل على الله والاعتماد عليه من شعب الإيمان، وهو عمل القلب، ولكنه لا ينافي الأخذ بالأسباب وتعاطيها، بل إن المفهوم الصحيح للتوكل يقتضي تحقيق الأسباب دون الركون إليها.

الفرع الأول: الأخذ بالأسباب في القرآن الكريم:

أولا: مفهوم الأخذ بالأسباب ومعاني السبب الواردة في القرآن الكريم حسب السياق القرآني:

1: تعريف الأسباب لغة:

ذكر علماء اللغة دلالات كثيرة للسبب يمكن توضيحها كالآتي:

قال ابن فارس:" (سب) السين والباء حَدّهُ بعضُ أهل اللغة أنَّ أصل هذا الباب القَطع، ثم اشتقَّ منه الشَّتم؛ وهذا الذي قاله صحيح، وأكثر الباب موضوعٌ عليه، من ذلك السِّبّ: الخِمار، لأنّه مقطوع من مِنْسَجه؛ فأمّا الأصل فالسَّبّ العَقْر؛ يقال سَبَبْت الناقة، إذا عقرتَها... وأما الحبل فالسّبب، فممكن أن يكون شاذّاً عن الأصل الذي ذكرناه، ويمكن أن يقال إنَّه أصلٌ آخَر يدلُّ على طول وامتداد، ومن ذلك السَّبَب... والسِّبّ: الحبل أيضاً" [1].

وورد في لسان العرب:" وكلُّ شيءٍ يُتوصّلُ به إلى الشيءِ فهو سَبَبٌ وجَعَلْتُ فُلاناً لي سَبَباً إلى فُلانٍ في حاجَتي وَوَدَجاً أَي وُصْلَة وذَريعَة... والسَّبَبُ اعْتِلاقُ قَرابة وأَسبابُ السماء مَراقِيها.. وأَسبابَ السموات هي أَبوابُها... والسَّبَبُ الحَبْل"[2].

يتضح مما سبق أن للسبب في اللغة دلالات منها: الحبل، والباب، والقطع، والذريعة؛ أي بمعنى أن السبب كل ما يتوصل به إلى غيره.

ب: معاني السبب الواردة في القرآن الكريم حسب السياق القرآني:

جاء لفظ "**سبب**" في تسعة مواضع من القرآن الكريم، خمسة منها بصيغة المفرد، وأربعة بصيغة الجمع،[3].

1- مقاييس اللغة، أحمد بن فارس، مادة: (سب) ،ج:، ص:63 وما بعدها.

2- لسان العرب، ابن منظور، مادة: (سب)، ج:1، ص:455.

3- المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، أحمد فؤاد عبد الباقي، القاهرة، دار الكتب المصرية، د.ط، 1364ه، ص:338.

وهي بمعان مختلفة تبعا للسياق الذي وردت فيه، ويمكن توضيحها كالآتي:

1: يأتي السبب في القرآن بمعنى الحبل. قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُۥ مَا يَغِيظُ﴾ [الحج، 15]

قال الزحيلي:" من كان يظن أَنْ لَنْ يَنْصُرَهُ اللَّهُ أي أن الله ناصر رسوله في الدنيا والآخرة، فمن كان يظن خلاف ذلك ويتوقعه من غيظه فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّماءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ أي فليمدد حبلا إلى سقف بيته يشده فيه وفي عنقه، ثم ليختنق به، بأن يقطع أنفاسه من الأرض"[1].

2: ويأتي السبب كذلك بمعنى العلم قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا﴾ [الكهف، 84].قال الطبري:" وآتيناه من كل شيء، يعني ما يتسبب إليه وهو العلم به"[2].

3: يراد بالسبب في القرآن الطريق، ومنه ﴿فَأَتْبَعَ سَبَبًا﴾ [الكهف، 85].

قال الزحيلي:" فاتّبع طريقا من الطرق التي تؤديه إلى مراده "[3]؛ وقد تكررت في موضعين آخرين من نفس السورة.

4: ذكر في سورة البقرة بمعنى الوصال. قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ﴾ [البقرة، 166].

ذكر الطبري معان لذلك منها:" عن مجاهد:"وتَقطعت بهمُ الأسباب" قال، الوصال الذي كان بينهم في الدنيا "[4].

5: ودل على معنى الباب في سورة ص، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿أَمْ لَهُم مُّلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَلْيَرْتَقُوا۟ فِى ٱلْأَسْبَٰبِ﴾ [ص، 10].

1- التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج، وهبة بن مصطفى الزحيلي، دمشق، دار الفكر المعاصر، ط.2، 1418هـ،ج:17، ص:173.

2- جامع البيان عن تأويل آي القرآن، محمد بن جرير الطبري، ت: عبد الله بن عبد المحسن التركي، دار هجر للطباعة والنشر، د.ط، د.ت،ج:18، ص:93.

3- التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج، وهبة بن مصطفى الزحيلي، ج: 16- ص:24.

4- جامع البيان عن تأويل آي القرآن، محمد بن جرير الطبري، ج:3، ص:289.

قال الطبري:" وإن كان لهم ملك السموات والأرض وما بينهما، فليصعدوّا في أبواب السماء وطرقها"[1].؛

وقد جاءت بنفس المعنى في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَـٰهَـٰمَـٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَـٰبَ﴾ [غافر، 31].

مما سبق عرضه وبيانه يمكن القول أن **الأخذ بالأسباب** هو تحصيل ما يتوسَّل به من المقومات المادية والمعنوية لبلوغ المقاصد والغايات.

وعليه فسنة الأخذ بالأسباب المقصودة بالبحث هي القانون الإلهي القائم على ربط المسببات بأسبابها، مما يقتضي تحصيل ما يُتوسَّل به من المقومات المادية والمعنوية لبلوغ مقصد إيقاظ الأمة من غفلتها، ومساعدتها على النهوض من جديد وفق منهج القرآن الكريم.

الفرع الثاني: أساليب القرآن الكريم في الحث على الأخذ بالأسباب:

تنوعت أساليب الكتاب المبين في الحث على الأخذ بالأسباب مع ملازمتها بالتوكل الحق المشروع، ومن هذه الأساليب:

أ: من أساليب القرآن الكريم في الحث على الأخذ بالأسباب أسلوب الأمر:

ومثال ذلك ما ورد في قوله تَعَالَى: ﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ﴾ [آل عمران، 159].

قال الرازي:" فائدة الكتابة والإشهاد أن ما يدخل فيه الأجل، تتأخر فيه المطالبة ويتخلله النسيان، ويدخل فيه الجحد، فصارت الكتابة كالسبب لحفظ المال من الجانبين لأن صاحب الدين إذا علم أن حقه قد قيد بالكتابة والإشهاد يحذر من طلب الزيادة، ومن تقديم المطالبة قبل حلول الأجل، ومن عليه الدين إذا عرف ذلك يحذر عن الجحود، ويأخذ قبل حلول الأجل في تحصيل المال"[2].

ب: من أساليب القرآن الكريم في الحث على الأخذ بالأسباب أسلوب الترغيب والترهيب وذلك ببيان تحصيل العبد للحياة الطيبة في العاجلة والأجر والثواب في الآجلة المترتب عن تقديم الأسباب لذلك وهي الإيمان والعمل الصالح.

فالثواب والجزاء من أهم ما يسوق النفس سوقا إلى امتثال أوامر ربها واجتناب نواهيه لجبلتها على حب الثواب وبغض العقاب.

1- المرجع نفسه، ج:21، ص:156.

2- مفاتيح الغيب، محمد بن عمر بن الحسن فخر الدين الرازي ، دار الفكر، ط.1، 140هـ،1981.ج:7، ص: 92.

قال الله تَعالَى: ﴿جَنَّٰتُ عَدۡنٖ يَدۡخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنۡ ءَابَآئِهِمۡ وَأَزۡوَٰجِهِمۡ وَذُرِّيَّٰتِهِمۡۖ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَدۡخُلُونَ عَلَيۡهِم مِّن كُلِّ بَابٖ﴾ [الرعد، 24].

قال النسفي:" (بِمَا صَبَرْتُمْ) متعلق بمحذوف تقديره هذا بما صبرتم أي هذا الثواب بسبب صبركم على الشهوات أو على أمر الله (فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ) "[1].

ج: من أساليب القرآن الكريم في الحث على الأخذ بالأسباب أسلوب القصص القرآني. إن مقاصد القصص القرآني أكثر من أن تعد وتستقصى؛ وإن الناظر بعين الإنعام إلى غاياتها وأهدافها ليقف على تلك الحقائق التي كانت تربي تلك الصفوة المباركة على اتخاذ الأسباب المادية والمعنوية للفوز في الحياة العاجلة والآجلة؛ والأمثلة على ذلك كثيرة سواء في ذلك ما تعلق بقصص الأنبياء أو الصالحين أو غيرها من أنباء الغيب التي أوحيت إلى نبينا محمد صلى الله عليه وسلم.

قال الله تَعالَى: ﴿ لَقَدۡ كَانَ فِي قَصَصِهِمۡ عِبۡرَةٞ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِۗ مَا كَانَ حَدِيثٗا يُفۡتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصۡدِيقَ ٱلَّذِي بَيۡنَ يَدَيۡهِ وَتَفۡصِيلَ كُلِّ شَيۡءٖ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ﴾ [يوسف، 111].

ولو تأملنا مثلا قصة مريم عليها السلام وهي في لحظات ضعفها وخوفها يأمرها الحق سبحانه باتخاذ الأسباب قائلا: ﴿وَهُزِّيٓ إِلَيۡكِ بِجِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ تُسَٰقِطۡ عَلَيۡكِ رُطَبٗا جَنِيّٗا ﴾. [مريم، 25].

قال الشنقيطي: " فالأخذُ بالأسبابِ لاَ ينافِي التوكلَ كما هو معروفٌ، وقد قال اللَّهُ لمريمَ: (وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ). ولا شَكَّ أنه لو أَرَادَ أن يتساقطَ عليها رُطَبُهَا من غيرِ سببٍ لَتَسَاقَطَ مِنْ غيرِ سببٍ، ولكنه أَجْرَى العادةَ بِأَنْ جَعَلَ للأرزاقِ والمعايشِ والأشياءِ أسبابًا، رَبَطَ بَيْنَ الأسبابِ ومسبباتِها بما شَاءَ بقدرتِه وحكمتِه"[2].

الفرع الثالث: التلازم بين التوكل على الله تعالى والأخذ بالأسباب:

التوكل على الله والاعتماد عليه من شعب الإيمان، وهو عمل القلب، ولكنه لا ينافي الأخذ بالأسباب وتعاطيها، بل إن الله تعالى لم يأمر بعبادة التوكل إلا بعد التحرز والأخذ بالأسباب؛ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿فَٱعۡفُ عَنۡهُمۡ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ وَشَاوِرۡهُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِۖ فَإِذَا عَزَمۡتَ فَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُتَوَكِّلِينَ ﴾ [آل عمران، 159].

1- مدارك التنزيل وحقائق التأويل، عبد الله بن أحمد بن محمود النسفي، دار الكلم الطيب، ط.1، 1419هـ ،1989م، ج:2، ص: 207.

2- العذب النمير من مجالس الشنقيطي في التفسير، محمد الأمين بن محمد المختار الشنقيطي، ت: خالد بن عثمان السبت، مجمع الفقه الإسلامي بجدة، دار عالم الفوائد، ط.2، 1426هـ، ج:5، ص:417.

قال المراغي:" أي فإذا عقدت القلب على فعل شيء وإمضائه بعد المشاورة ومبادلة الرأي فيه، فتوكل على الله، وفوّض الأمر إليه بعد أخذ الأهبة واستكمال العدّة، ومراعاة الأسباب التي جعلها الله وسيلة للوصول إلى المسببات كما ورد في الحديث «اعقلها وتوكل»، ولا تتكل على ما أوتيت من حول وقوة، ولا على إحكام الرأي وأخذ العدة، فذلك كله ليس بكاف في النجاح ما لم تقرن به معونة الله وتوفيقه "[1].

ويقول كذلك" من شروط التوكل الصحيح القيام بالأحكام الشرعية ومراعاة السنن الكونية والاجتماعية، فمن يترك العمل بالأسباب فهو الجاهل المغرور لا المتوكل المأجور، كيف وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم لمن سأله أيترك ناقته سائبة ويتوكل على الله؟ «اعقلها وتوكل»"[2].

فاتخاذ الأسباب ومراعاتها والسهر على تحصيلها من كمال التوكل الحق المشروع.

قال ابن القيم:" إن من نفى الأسباب فتوكله مدخول، وهذا عكس ما يظهر في بدوات الرأي أن إثبات الأسباب يقدح في التوكل، وأن نفيها تمام التوكل، فاعلم أن نفاة الأسباب لا يستقيم لهم توكل البتة؛ لأن التوكل من أقوى الأسباب في حصول المتوكل فيه فهو كالدعاء الذي جعله الله سببا في حصول المدعو به"[3].

المطلب الثاني: نماذج من القصص القرآني في سنة الأخذ بالأسباب وكيفية استفادة الأمة منها في نهضتها:

إن من جملة ما يناط به استنهاض الأمة تحقيق سنة الأخذ بالأسباب، وهي سنة مطردة عامة لا تحابي أحدا؛ والواقع يشهد لذلك؛ فالغرب لما حقق سنن التقدم والرقي المادية مُكِّنَ له في الأرض؛ ولما خاب أكثر المسلمين في تحقيقها تخلفت عنهم النتائج؛ وقد دل القرآن الكريم على ذلك في آيات كثيرة تستثير أهل الإيمان للتفاعل مع هذه الأسباب؛ والقصص القرآني يزخر بذلك وشاهد عليه.

الفرع الأول : أثر تحصيل الأسباب المادية والمعنوية للقوة والتمكين في قصة ذي القرنين وكيفية استفادة الأمة منها في نهضتها :

1- تفسير المراغي، أحمد مصطفى المراغي، دار النشر: مصطفى البابي الحلبي ، 1365هـ، 1946م، ج:4، ص:115.

2- تفسير المراغي، أحمد مصطفى المراغي، ج:9، ص:7.

3- مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، شمس الدين ابن قيم الجوزية، دار الكتاب العربي، ط.7، 1423هـ، 2003م، ج:3، ص: 1752.

يمثل ذو القرنين نموذجا حيا لرجل صالح جمع بين الأسباب المعنوية من صدق الإيمان بالله ومقتضياته وبين تسخير الأسباب الكونية والمادية التي أحسن فقهها وأجاد توظيفها؛ فمكن الله له في الأرض، ووسع ملكه، وأعز جنده، وخلد في القرآن ذكره؛ وقد صورت لنا سورة الكهف بعضا من أسباب وعوامل هذه الرفعة والعزة في الأرض حقيق بهذه الأمة أفرادا وجماعات، حكاما ومحكومين أن يتدبروا معانيها، ويفقهوا مقاصدها، ويجيدوا الإفادة منها لعل الله أن يبدل حالنا من عسر إلى يسر؛ ومن أهمها ما يلي:

1: الأسباب المعنوية للتمكين:

إن المتأمل لقصة الرجل الصالح في ثنايا سورة الكهف المباركة يلحظ ذلك الارتباط الوثيق للحاكم المؤمن بربه جل وعلا في جميع معاملاته وإنجازاته المذكورة؛ وهذا هو الركن الركين لاستنهاض الأمة في هذا الزمان، إذ لامناص من الإعداد الإيماني قبل الإعداد المادي، يقول تعالى على لسان هذا القائد الرباني: ﴿وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا﴾ [الكهف، 88].

قال الصابوني رحمه الله: " اختار الملك العدل دعوتهم بالحسنى فمن آمن فله الجنة، والمعاملة الطيبة، والمعونة والتيسير، ومن بقي على الكفر فله العذاب والنكال في الدنيا والآخرة "[1].

ففي هذا إشارة واضحة إلى تحقيق الرجل الصالح الإيمان في نفسه، ودعوة الغير إليه، والجهاد في سبيله؛ وهو عين الأسباب المعنوية للنهوض والعزة والتمكين.

2: الأسباب المادية للتمكين:

أ: تحصيل المقومات الصناعية وحسن استغلالها:

رغم توفر الأمة الإسلامية على خبرات في باطن الأرض وعلى ظاهرها وامتلاك الطاقات البشرية المؤهلة لم تستطع أن تُفَعِّل ذلك في بناء اقتصاد حضاري يخدم الإسلام ورسالته؛ بالمقابل فالمتدبر والمتأمل لحجم الإنجازات التي ذكرها القرآن الكريم في قصة القائد الصالح يقف على الإطلاع الواسع للرجل، والخبرة الكبيرة له بعلوم المادة مصحوب ذلك كله بالفاعلية في التعامل مع هذه المقومات، وحسن تسخيرها لفائدة الإنسانية كلها، فهلاَّ تعلمنا من ذلك.

قال الله تعالى على لسان ذي القرنين: ﴿ءَاتُونِى زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ ٱلصَّدَفَيْنِ قَالَ ٱنفُخُوا۟ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارًا

1- صفوة التفاسير، محمد علي الصابوني، دار القرآن الكريم، ط.4، 1402هـ، 1981م، ج:2،ص:188.

﴿قَالَ ءَاتُونِيٓ أُفۡرِغۡ عَلَيۡهِ قِطۡرٗا﴾ [الكهف، 92].

قال الشعراوي:" كيف بنى ذو القرنين هذا السد من الحديد والنحاس؟

هذا البناء يشبه ما يفعله الآن المهندسون في المعمار بالحديد والخرسانة؛ لكنه استخدم الحديد، وسَدَّ ما بينه من فجوات بالنحاس المذاب ليكون أكثر صلابة، فلا يتمكن الأعداء من خَرْقه، وليكون أملسَ ناعماً فلا يتسلقونه، ويعلُون عليه "(1).

ب: الإسهام الجماعي والفاعلية في الإنجاز:

إن من عوامل الاستنهاض والقيام لأداء الدور الحضاري مما سبق بيانه العمل الجماعي؛ وهذا العامل يلاحظ جليا في إنجازات الحاكم الصالح.

قال الله تعالى على لسان ذي القرنين: ﴿قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيۡرٞ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجۡعَلۡ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَهُمۡ رَدۡمًا﴾ [الكهف، 95].

قال الشعراوي:" لم يكن ذو القرنين رجلاً رحالة، يسير هكذا بمفرده، بل مكَّنه الله من أسباب كل شيء، ومعنى ذلك أنه لم يكن وحده، بل معه جيش وقوة وعدد وآلات، معه رجال وعمال، معه القوت ولوازم الرحلة، وكان بمقدوره أنْ يأمرَ رجاله بعمل هذا السدِّ، لكنه أمر القوم وأشركهم معه في العمل لِيُدرِّبهم ويُعلِّمهم ما داموا قادرين، ولديهم الطاقة البشرية اللازمة لهذا العمل... لذلك تجد هنا أوامر ثلاثة: أعينوني بقوة، آتوني زبر الحديد، آتوني أفرغ عليه قطراً"(2).

ما أحوج الأمة اليوم قيادة ورعية وهي تروم استنهاضها من جديد أن تقبل على كتاب ربها تلاوة وفقها وإعمالا لما فيه من عبر وأحكام وحكم في واقع حياتها ممارسة وسلوكا؛ وتنأى عن الارتجالية في القرارات، والأحادية الفردية في الممارسات، وأن تصهر طاقات الجميع لخدمة الهدف المنشود كل حسب موقعه وتخصصه.

يقول الدكتور حامد بن يعقوب:" وهكذا نرى أن هذا الإنجاز العظيم وهذه النهضة العمرانية الضخمة ما كانت لتتم إلا بفضل من الله ثم بالعمل الجماعي الذي تكاتفت فيه الجهود، وحشدت فيه القوى البشرية، واستثمرت بواسطته الطاقات و القدرات، فعلى القيادة الواعية في هذه الأمة أن تستفيد من تجربة ذي القرنين في

1- خواطر الشعراوي، محمد متولي الشعراوي ي، مطابع أخبار اليوم، د.ط، د.ت،ج:14،ص:8991

2- خواطر الشعراوي، محمد متولي الشعراوي، ج:14،ص:8991.

الجمع والتنسيق والتعاون وأن ترفع شعار «فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ»"[1].

الفرع الثاني: الإدارة السليمة والتخطيط المحكم للنبي يوسف عليه السلام وأثره في الخروج من الأزمات الاقتصادية:

إن الارتجالية في القرارات، والأحادية الفردية في الممارسات من أهم الأسباب التي جعلت الأمة تراوح مكانها لزمن طويل تتخبط في الفوضى والعشوائية، وإنما يقوم الاستنهاض المثمر على ساق التخطيط المحكم والإدارة السليمة؛ وفي قصة يوسف عليه السلام، وفي سياسته الحكيمة لإنقاذ مصر من أزمتها الاقتصادية نافذة على ثمرات التخطيط الجيد يحسن بالأمة الإفادة منها.

1: إشارات الأزمة القادمة في رؤيا الملك:

قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ إِنِّيٓ أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ﴾ [يوسف، 43].

قال ابن كثير:" هذه الرؤيا من ملك مصر، مما قدر الله- تعالى- أنها كانت سببا لخروج يوسف- عليه السلام- من السجن معززا مكرما، وذلك أن الملك رأى هذه الرؤيا، فهالته وتعجب من أمرها، وما يكون تفسيرها فجمع الكهنة وكبراء دولته وأمراءها، وقص عليهم ما رأى، وسألهم عن تأويلها، فلم يعرفوا ذلك "[2].

2: تعبير الرؤيا مقرون بعرض خطة تسيير الأزمة القادمة:

قال الله تبارك وتعالى على لسان يوسف: ﴿قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ﴾ [يوسف، 45].

تحمل هذه الآية من دلالات الإعجاز العلمي والغيبي ما لا يدع للعقل السوي إلا أن يقر بوحدانية الله تعالى وأنه قد أحاط بكل شيء علما.

فخطة النبي يوسف عليه السلام المحكمة التي عرضها على الملك في مواجهة سنوات القحط والجفاف كانت كإجراءات استباقية للأزمة قبل حلولها، وعبرة وتعليم للأمم من بعده زمن المحن؛ ويمكن بيانها كالآتي:

1- القرآن الكريم ومقومات النهضة، مجموعة من الباحثين، الأردن، دائرة المكتبة الوطنية، ط.1، 1433هـ،2012م، ص:429.

2- تفسير القرآن العظيم، عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن كثير، لبنان، دار الكتب العلمية، ط.1، 1419هـ، 1998م، ج:4، ص: 392.

أ: ضرورة الاهتمام بالجانب الزراعي لسبع سنوات متواصلة، تتسم بالاستمرارية في العمل والجد والنشاط.

ب: اعتماد سياسة الادخار تحسبا للسنوات العجاف، مع الاعتماد على الفائدة العلمية التي ذكرها لهم " **فذروه في سنبله**" كيلا يلحقه الفساد.

ج: ترشيد الاستهلاك بحيث لا يزيد عن الحاجة وفي ذلك غلق لباب الإسراف والتبذير.

3: الصفات المؤهلة للقائد لإخراج أمته من الأزمات:

قال الله تبارك وتعالى على لسان يوسف﴿ قَالَ ٱجۡعَلۡنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلۡأَرۡضِۖ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٞ ﴾ [يوسف، 55].

قال الشعراوي:" وهذا القول تأكيد لثقة يوسف أن القادم في هذا البلد يحتاج لحكمة إدارة ، لا تبعثر ما سوف يأتي في سنين الخصب؛ لتضمن الاطمئنان في سنين الشدة ، وتلك مهمة تتطلب الحفظ والعلم"[1].

وقال الطاهر بن عاشور :" واقتراح يوسف عليه السلام ذلك إعداد لنفسه للقيام بمصالح الأمة على سنة أهل الفضل والكمال من ارتياح نفوسهم للعلم في المصالح، ولذلك لم يسأل مالاً لنفسه ولا عَرَضاً من متاع الدنيا، ولكنه سأل أن يوليه خزائن المملكة ليحفظ الأموال ويعدل في توزيعها ويرفق بالأمة في جمعها وإبلاغها لمحالّها "[2].

فالحفظ والأمانة من صفات الأنبياء والمرسلين، وتتأكد في حق كل من ولاه أمرا من أمور المسلمين؛ واستنهاض الأمة ودفعها للشهود الحضاري لا يستقيم إلا بهما، ومن رام الرقي بدونهما رام المحال من الطلب.

4: أهمية الإدارة الرشيدة والتخطيط المحكم في تسيير الأزمات واستنهاض الأمة:

إن استنهاض الأمة لا يستوي عوده، ولا تثمر فروعه إلا إذا صاحبه حسن تدبير، ودقة تخطيط يحكمها الفهم الصحيح للواقع، والنظر الثاقب لمآلات ذلك على الفرد والأمة؛ مما يدفعها دفعا إلى ضرورة إيجاد الكفاءة البشرية التي تحسن التدبير وتبدع في التخطيط؛ ومتى اجتمعت للأمة الأسباب والوسائل، وأحسنت توظيفها توظيفا لا يصادم روح الشريعة تحقق لها بإذن الله موعود ربها من العزة والرفعة.

يقول عبد اللطيف رجب قانوع:" إن هذه القصة تنتصب هادية لنا في أن نستفيد من كل عوامل القوة وأصحاب القدرات في النهوض بمجتمعنا وإقامة حضارتنا "[3].

ويقول الدكتور عبد الحميد أحمد:" إن مشروع استنهاض الأمة مشروع إصلاحي مشروط بأن يكون

1- تفسير الشعراوي، محمد متولي الشعراوي، ج:11، ص: 6998.

2- التحرير والتنوير، الطاهر بن عاشور، تونس، الدار التونسية للنشر، (د.ط)، 1984م، ج:13، ص:07.

3- قضايا الأمة وعلاجها في القصص القرآني، عبد اللطيف رجب قانوع، الجامعة الإسلامية غزة ، مذكرة ماجيستير، إشراف: د/وليد محمد العمودي 1432هـ – 2011م، ص: 221.

الإنسان ركيزته الأساسية، وأن يبدأ التغيير والإصلاح من شخصية الإنسان المسلم، وإصلاح ما تعانيه هذه الشخصية من جوانب سلبية، لأنه إذا استقامت رؤية هذا الإنسان الكونية والحضارية، وإذا استقام منهج فكره وثقافته، وصحت أساليب تربيته على أساس متين من العلم وطلب السنن الإلهية بروح الحق والعدل، وبروح الحب والبذل، وبأداء الجد والإتقان... عندها فقط تكون الأمة على جادة الصلاح والإصلاح، وعندها فقط يرجى لجهود الإصلاح النجاح في استنهاض الأمة "[1].

وخلاصة القول أن مشروع استنهاض الأمة من جديد وشهودها الحضاري محكوم بسنن شرعية وكونية لا تحابي أحدا من الخلق، ومتى تخلفت واحدة منها تأخر أمل القيادة والريادة لهذه الأمة للإنسانية.

خاتمة

يمكن إجمال أهم نتائج البحث في:

- التمكين للأمم السابقة التي ورد ذكرها في القصص القرآني كان محكوما بقانون السببية؛ فمن حقق الأسباب المشروطة لذلك تحقق له التمكين الموعود.
- السنن الإلهية مطردة لا تحابي أحدا من الخلق، وفقا لقوله تعالى: (إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ).
- أول ما يتعين تحصيله لاستهاض الأمة الإسلامية المقومات المعنوية، وبدونها يتساوى الجميع أمام السنن الإلهية – المؤمن والكافر– والغلبة لمن ملك المقومات المادية.
- من الفقه الصحيح للمقومات المعنوية تحصيل المقومات المادية، وهذا ظهر جليا في قصة الملك الصالح الطواف.
- العمل الجماعي المحكوم بقانون العدالة والحرية والأمانة والعلم سبب مباشر في استنهاض الأمة.
- ادعاء التوكل على الله دون اتخاذ الأسباب مصادمة للسنن الكونية المؤطرة للإعمار، واتخاذ الأسباب والركون إليها مصادمة للسنن الشرعية؛ والموفق من وفقه الله للجمع بينهما.
- **ويبقى الموضوع أرضا خصبة للبحث ومن آفاقه:**
- ضرورة العمل المشترك بين جميع فئات الأمة لاستنهاضها، وتفعيل جميع الطاقات الفردية كل حسب

1- الإصلاح الإسلامي المعاصر:(تجديد الخطاب وإعداد الكوادر)، عبد الحميد احمد أبو سليمان، دار الفكر الإسلامي، 1401هـ – 1981م، ص: 48.

موقعه ودرجة فاعليته فيها.

- ضرورة القراءة الواعية للقصص القرآني والإفادة من ذلك في مجالات الحياة كلها.
- ضرورة الاهتمام بالقصص القرآني بقدر الاهتمام بآيات الأحكام والعقائد فهي ميدان خصب، ومنهل عذب لا ينضب أبدا.

فهرس المصادر والمراجع

- **القرآن الكريم برواية حفص.**
- الإصلاح الإسلامي المعاصر:(تجديد الخطاب وإعداد الكوادر)، عبد الحميد أحمد أبو سليمان ، دار الفكر الإسلامي، 1401هـ، 1981م.
- التحرير والتنوير، الطاهر بن عاشور، تونس، الدار التونسية للنشر،(د.ط)،1984م.
- تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، لبنان، دار الكتب العلمية، ط.1، 1419هـ، 1998م.
- تفسير المراغي، أحمد مصطفى المراغي، دار النشر: مصطفى البابي الحلبي ، 1365هـ، 1946م.
- التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج، وهبة بن مصطفى الزحيلي، دمشق، دار الفكر المعاصر، ط.2، 1418هـ.
- **جامع البيان عن تأويل آي القرآن، محمد بن جرير الطبري، ت: عبد الله بن عبد المحسن التركي، دار هجر للطباعة والنشر، د.ط، د.ت.**
- خواطر الشعراوي، محمد متولي الشعراوي، مطابع أخبار اليوم، د.ط، د.ت .
- **السنن الإلهية في الأمم والجماعات والأفراد في الشريعة الإسلامية، عبد الكريم زيدان، بيروت، مؤسسة الرسالة، ط.1، 1413هـ، 1993م.**
- سنن الله في الأمم من خلال آيات القرآن الكريم لحسن بن صالح الحميد، الرياض، دار الفضيلة، ط.2، 1432هـ/2011م.
- صفوة التفاسير، محمد علي الصابوني، دار القرآن الكريم، ط.4، 1402هـ، 1981م.
- العذب النمير من مجالس الشنقيطي في التفسير، محمد الأمين بن محمد المختار الشنقيطي، ت: خالد بن عثمان السبت، مجمع الفقه الإسلامي بجدة، دار عالم الفوائد، ط.2، 1426هـ.
- القرآن الكريم ومقومات النهضة، مجموعة من الباحثين، الأردن، دائرة المكتبة الوطنية، ط.1، 1433هـ،2012م.
- قضايا الأمة وعلاجها في القصص القرآني، عبد اللطيف رجب قانوع، الجامعة الإسلامية غزة ، مذكرة ماجيستير، إشراف:د/وليد محمد العمودي، 1432هـ، 2011م .
- لسان العرب، محمد بن مكرم بن منظور، بيروت، دار صادر، ط. 1، د.ت.

- مختار الصحاح، محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي ، بيروت، مكتبة لبنان، د.ط، 1986م.
- مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ، ابن قيم الجوزية، دار الكتاب العربي، ط.7، 1423هـ، 2003م.
- مدارك التنزيل وحقائق التأويل، حافظ الدين عبد الله أحمد بن محمود النسفي، دار الكلم الطيب، ط.1، 1419هـ ،1989م.
- معجم اللغة العربية المعاصرة، أحمد مختار عمر، عالم الكتب، ط.1 – 1429هـ، 2008م، ج:3، ص:2294.
- المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، فؤاد عبد الباقي، القاهرة، دار الكتب المصرية، د.ط، 1364هـ.
- معجم مقاييس اللغة، أحمد بن فارس، ت : عبد السلام محمد هارون، دار الفكر للطباعة والنشر، (د.ط)، 1399هـ،1979م.
- مفاتيح الغيب، محمد بن عمر بن الحسن الفخر الرازي، دار الفكر، ط.1، 1401هـ، 1981.